

العدوان على العراق عبر التاريخ

أ.د. رأفت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ومؤسس معهد الدراسات الآسيوية
جامعة الزقازيق

مُتَكَلِّمًا :

لم يكن العدوان الأمريكي البريطاني على دولة العراق المستقلة عضو الجامعة العربية وعضو منظمة المؤتمر الإسلامي. وعضو هيئة الأمم المتحدة في مارس وإبريل عام ٢٠٠٣م. أول عدوان يقع على العراق في تاريخه الطويل، إذ أن العراق تعرض لعدوان متكرر في تاريخه القديم، وفي تاريخه الإسلامي (الوسيط). كما تعرض لعدوان من الجارة الإسلامية إيران في بداية التاريخ الحديث على يد الشاه إسماعيل الصفوي الشيعي عام ١٥٠٨م، كما تعرض لعدوان القوات البريطانية في أثناء معارك الحرب العالمية الأولى في العقد الثاني من القرن العشرين.

وفي الصفحات التالية استعراض للعدوان على العراق في التاريخ القديم، إذا أن العراق بلاد الرافدين - شهد قيام دول وحضارات في فترة ما قبل التاريخ الميلادي. حيث استطاع العراقيون إقامة حضارة مزدهرة ما زالت آثارها باقية زمن السومريين والبابليين وغيرهم. كما أن المغول بزعامة هولاكو حفيد جينكيز خان - غزوا العراق المزدهرة زمن الخلافة العباسية، وتم تدمير بغداد عاصمة الخلافة العباسية تدميراً بربرياً لقي فيه شعب العراق الاضطهاد بل المذابح على يد المغول الذين حاولوا تدمير التراث الحضاري العربي الإسلامي من مكتبات ومدارس ومساجد وقصور.

ويأتي العدوان الصفوي الشيعي من فارس المجاورة للعراق، في بداية

التاريخ الحديث بهدف التوسع وإقامة إمبراطورية بزعامة الشاه إسماعيل الصفوي الذي أقام دولة في شمال غرب إيران (فارس) عام ١٥٠٠م، ونجح في ضم بقية الأراضي الفارسية، ثم اتجه نحو العراق وضمها إلى دولته عام ١٥٠٨م حيث خرج التشيع على العراقيين بالقوة.

ثم كان العدوان البريطاني في أوائل القرن العشرين أثناء سنوات الحرب العالمية الأولى بدعوة طرد القوات التركية، وقد لقيت المدن العراقية ولقي الشعب العراقي ويلات الحرب من تدمير وضحايا.

وأخيراً جاء العدوان الأمريكي البريطاني خلال مارس وأبريل ٢٠٠٣م المستمر حتى الآن، ليثير أشجان العرب والمسلمين حول تكرار العدوان على شعب العراق وأرض العراق.

أولاً : العدوان على العراق في التاريخ القديم

يمكن التأريخ لبلاد الرافدين (دجلة والفرات) بالسومريين الذين هم من أقدم الشعوب العريقة التي استطاعت وضع لبنات الحضارة الأولى في القسم الجنوبي من العراق القديم والذي عرف ببلاد سومر، ومن المعروف أن القسم الجنوبي من العراق كان في بداية العصور التاريخية للسومريين الذين سكنوا المنطقة الممتدة من حدود مدينة "نفر"^(١) إلى أقصى الأراضي الجنوبية من وادي الرافدين، وقد عرفت هذه المنطقة في العصور التاريخية ببلاد سومر^(٢). ولقد ازدهرت الحضارة في بلاد الرافدين على يد السومريين، وذلك في مختلف المجالات كالعلوم والمعارف والفنون والعمارة، واشتهرت بلاد الرافدين باختراع حروف الكتابة التي عرفت باللغة السومرية التي كتبت بالكتابات المسمارية، وهي تختلف تماماً عن اللغة الآشورية التي كان بعض العلماء قد توصل إلى حل رموزها.

ويرتبط بالسومريين ويجاورونهم إلى الشمال من منطقة سومر، الأكديون الذين هم من القبائل التي نزحت من جزيرة العرب واستوطنت العراق في وقت مبكر جداً وقد استطاع "سرجون الأكدي" قائد الجزريين (٢٤٠٠ - ٢٣٧١ ق.م.) فرض سيطرته على البلاد وتوحيد دويلات المدن، ومن ثم إقامة إمبراطورية واسعة الأرجاء عرفت بالإمبراطورية الكدرية نسبة

(١) نفر Nifrn كانت واحد من أشهر المراكز الثقافية والدينية في تاريخ الحضارة السومرية، وقد اندثرت تلك المدينة، وكشفت عنها عمليات التنقيب الحديثة.

(٢) تجمع معظم المصادر عن أن السومريين امتداد لأقوام عصور ما قبل التاريخ في وادي الرافدين، وأنهم انحدروا من شمال العراق إلى الجنوب، واستوطنوا في منطقة كانت على الأرجح تعرف باسم سومر، والتي عرف السومريون باسمها في العصور التاريخية اللاحقة: صالح العلي وآخرون: العراق في التاريخ، بغداد ١٩٨٣م، ص ٦٨.

إلى مدينة "أكد"، التي اتخذها عاصمة له، والتي ما يزال موقعها غير معروف حتى الآن. وقد عاش الأكديون جنباً إلى جنب مع السومريين وتفاعلوا معهم قبل أن يتمكنوا من الاستيلاء على دفة الحكم.

وكان الأكديون يتكلمون اللغة الأكديّة التي هي فرع من فروع لغة الجزيرة الأم، كما أنهم استخدموا في كتاباتها الخط المسماري الذي استنبطه السومريون من قبل، ثم إن وجود الأكديين جنباً إلى جنب مع السومريين أدى بطبيعة الحال إلى تأثرهم بالحضارة السومرية مما يجعل من الصعب التمييز بين ما هو سومري الأصل وبين ما هو أكدي^(٣).

ويعد سرجون الأكدي، الذي حكم في الفترة من ٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق.م. واحداً من أعظم القادة السياسيين والعسكريين في التاريخ القديم، وقد استطاع في غضون فترة قصيرة بسط نفوذه على كل بلاد سومر، والبلاد الواقعة إلى الشرق من بلاد الرافدين (فارس) والبلاد الواقعة إلى الجنوب من إمبراطورية (الخليج) إلى جانب البلاد الواقعة إلى الشمال وهي بلاد سورية وخاصة مدينة "قينيوي" و"أشور" و"ديار بكر" وجنوب شرقي آسيا الصغرى.

ولكن البناء الحضاري لبلاد الرافدين في عهد السومريين والأكديين تعرض للعدوان من جانب "الكوتيين" وهم من القبائل الهمجية التي كانت تستوطن أواسط "زاجروس" في منطقة همدان، الذين بقوا يسيطرون على بلاد الرافدين مدة تقرب من القرن من الزمان (٢٢١١ - ٢١٢٠ ق.م.)، والذين تعد فترة حكمهم من الوجهة التاريخية أولى الفترات في تاريخ بلاد الرافدين، حيث توقفت فيها عجلة التقدم الحضاري في كافة المجالات.

ولكن حيوية شعب بلاد الرافدين رفضت سيطرة "الكوتيين" على مقدرات الأمور في بلادهم، ومن ثم هب شعب العراق عام ٢١٢٠ ق.م.

(٣) صالح العلي وأخرون: العراق في التاريخ، بغداد ١٩٨٣ ص ٧٥.

بزعامة زعيم سومري يدعي "أوتوحيكال" حتى تمكن من تخليص البلاد من حكم الكوتيين بالانتصار على جيوش الملك الكوتي "تريكان" الذي فر من أرض المعركة، ولكن المواطنين لاحقوا الملك المهزوم حتى ألقوا القبض عليه وجاءوا به ليركع عند قدمي الملك السومري "أوتوحيكال"^(٤).

ولسنا هنا بصدد سرد تاريخ العراق القديم لأننا نركز فقط على ما فعله المعتدون على بلاد الرافدين في العصور القديمة، وكيف استطاع شعب العراق طرد المعتدين، ولكننا نشير إشارات مختصرة إلى ملوك حكموا بلاد الرافدين ودافعوا عنها ضد المعتدين، منهم "حمورابي" البابلي من ١٧٩٣ ق.م. إلى عام ١٧٥١ ق.م، الذي دافع عن البلاد ضد عدوان الآشوريين كما دافع عن "أشنونة" الواقعة على نهر دجلة جنوب مصب ديالي، ووجد العراق ضمن حدود أمانة سهل الدفاع عنها.

وبعد حمورابي ضعفت بلاد الرافدين بحيث استطاع الحيثيين في شمال سوريا الاستيلاء على بابل (١٥٩٨ ق.م.) ولكنه لم يستطع البقاء طويلاً، وإن كانت البلاد سقطت تحت حكم "الكشيين" لمدة طويلة (١٥٩٥ - ١١٥٧ ق.م) التي تعتبر فترة مظلمة في تاريخ بلاد الرافدين، وهم من المنطقة الوسطي لسلسلة جبال "زاجروس" المعروفة الآن "بلورستان" - فارس.

وقد تعرضت بلاد الرافدين لعدوان من قبل الآشوريين والعيلاميين حيث نهبوا بابل والمدن الدينية الهامة وبعد فترة قصيرة الآشوريين والعيلاميين انتهى حكم "المشيين" في العراق عام ١١٥٧ ق.م، وعلى الرغم من اعتداءات العيلاميين المتكررة على البلاد ومحاولتهم تكريس الاحتلال إلا أن البابليين لم يدعوا لحكم الأجنبي، وثابروا على التخلص من حكم العيلاميين بشتى الوسائل، تزعم البابليين زعيم من مدينة "إيسن" اسمه "مردوخ" - كابت - أخيشو".

(٤) المرجع السابق ص ٨٢.

ومن ملوك بلاد النهرين الذين استعادوا مجد البلاد ودافعوا عنها ضد المعتدين الملك "تبوخذ نصر" الأول الذي يعد من أشهر ملوك بلاد وادي الرافدين ممن استطاعوا مقارعة العلاميين ووضع حد لتجاوزاتهم واعتداءاتهم على البلاد (١١٢٤ - ١١٠٣ ق.م.)، أعاد خلالها هيبة الحكم للبلاد ورفع من معنويات الشعب بعد أن خيم عليه كابوس الاحتلال الأجنبي طيلة العصر الكيشي، ولم ينس البابليون ما فعله العيلاميون بهم عندما دنسوا معابدهم وسلبوهم أقدس ما عندهم وهو تمثال "مردوخ" رب الأرباب البابلية الذي نقلوه معهم إلى عاصمتهم^(٥). وجاء الآشوريون من شمال العراق بزعامة ملكهم "سرجون الثاني" ٧٢١ - ٧٠٥ ق.م. فاستسلمت لهم بابل، كما انتهت مملكة عيلام على يد الجيش الآشوري الذي تمكن من دخول وتدمير مدنها وفتح عاصمتها. وقد تم كل ذلك عام ٦٢٦ ق.م. إلا أن زحف الجيش البابلي بقيادة ولي العهد البابلي "تبوخذ نصر" الثاني اضطرهم للانسحاب إلى "كركميش" حيث وقعت معركة كبرى كان الانتصار الحاسم فيها للجيش البابلي.

وقد حكمت العراق خلال الفترة التي أعقبت سقوط الآشوريين، السلالة الأكديّة، وكان عهدا آخر عهود الاستقلال السياسي والحكم الوطني في العراق، وظلت البلاد تنتقل بعدها من احتلال لاحتلال حتى الفتح العربي، ومن أشهر ملوك الأكديين "تبوخذ نصر" الذي حكم في الفترة من ٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م. والذي جعل من بابل إمبراطورية واسعة، والذي حدث في عهده أسر ثلاثة آلاف من سراء اليهود وعلى رأسهم ملك يهوذا في فلسطين "وحز قيال" النبي المعروف.

وحدث عدوان آخر ضد العراق من جانب الملك الفارسي كورش عام ٥٣٩ ق.م.، حيث اصطدم بالجيش البابلي الذي تقدم لصدده عند مدينة "أوبس"

(٥) نفس المرجع السابق ص ٩٢.

قرب المدائن الحالية، وكان النصر لكورش، وقد أحرق كورش أهدل "أكد" بالنار دلالة على قسوته وإحاقه الضرر بالبلاد بعد انتصاره في "أوبس"، وقد ساعده في ذلك اليهود بدليل أنه بعد سقوط بابل أطلق سراح اليهود المأسورين وسمح لهم بالعودة إلى فلسطين وبناء المعبد في القدس، وإرجاع ما حمله نبوخذ نصر.

ومما يؤكد الخيانة التي تسببت في سقوط بابل في يد الفرس، ذلك المثل البابلي القائل والذي يذكره هيرودتس: إن الفرس قادرون على احتلال بابل فقط عندما يلد البغل"، ومعرفة البابليين أنذاك بالخيانة التي لولاها لما تمكن الفرس نهائياً من احتلال مدينتهم الحصينة إلى جانب أنها كانت ساعة الهجوم خالية من قوة عسكرية كافية للدفاع عنها.

وهكذا تعرض العراق لعدوان متكرر كان في معظمه قادم من فارس، مما يشير إلى أن العراق مستهدف عبر سنوات التاريخ من فارس أو عبر فارس، فإذا كانت أحداث التاريخ القديم قد سجلت موجات من هذا العدوان، فإن التاريخ الوسيط سجل عدواناً عبر فارس من جانب المغول الذين اجتاحتها وسط آسيا الإسلامية وفارس ثم العراق، كما تم العدوان على العراق من فارس مع بداية العصور الحديثة عام ١٥٠٨م على يد لشاه إسماعيل الصفوي شاه فارس الشيعي.

ثانياً : العدوان المغولي على العراق

أصبح العراق وفارس جزءاً من الدولة الإسلامية الكبرى التي كانت المدينة المنورة بالحجاز عاصمة لها زمن الخلفاء الراشدين، وفي عهد الخليفة الزابع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه اتخذ من مدينة الكوفة ببلاد العراق عاصمة للدولة، حتى إذا تولى قيادة الدولة الإسلامية معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية فاتخذ من مدينة دمشق عاصمة للدولة الإسلامية من عام ٤٠ إلى عام ١٣٢هـ حتى إذا نجح العباسيون في إنهاء حكم الدولة الأموية، وإقامة الخلافة العباسية اتخذوا من العراق مقراً لحكمهم، وبني الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور مدينة بغداد التي أصبحت عاصمة للخلافة وللعراق منذ ذلك التاريخ، وقد وضع أبو جعفر المنصور بنفسه تخطيط المدينة، وبدأ البناء عام ١٤٥هـ وتم البناء عام ١٤٧هـ، وأطلق عليها اسم "مدينة السلام" وإن كان الناس يسمونها في الغالب "مدينة المنصور" كما أنهم أطلقوا عليها وعلى ما شملته من أبنية أخرى عند توسعها اسم "بغداد" الذي كان يطلق على هذه المنطقة منذ أيام البابليين.

وقد جعل أبو جعفر المنصور مدينته مدورة، وأحاطها بخندق وسورين بينهما فسحة واسعة، والسور الداخلي أعرض سمكاً وأعلى ارتفاعاً وأحكم بناء، وعليه شرافات كالأبراج، وجعل لها أربعة أبواب ضخمة سمي كل باب باسم الإقليم الذي يواجهه، وهو باب الشام، وباب الكوفة، وباب البصرة، وباب خراسان. وفوق كل باب قبة وحصن كل مدخل بياب ضخ من حديد يمكن إقفاله^(٦).

(٦) صالح العلي: المرجع السابق ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

وقد شهدت بغداد عصراً من الازدهار العمراني والحضاري في العصر العباسي الأول حيث امتدت الدولة العباسية إلى أواسط آسيا، وازدهرت الثقافة العربية الإسلامية وأصبحت الحضارة العربية الإسلامية أزهي الحضارات الإنسانية في عالم ذلك الزمان، حيث كانت الحضارة الرومانية في أوروبا تعيش عصراً من الانحطاط الحضاري بسبب سيطرة الكنيسة على الفكر في أوروبا، وفي العصر العباسي الثاني أخذت الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري في الضعف والتفكك لأسباب، منها اعتماد العباسيين على الفرس والأتراك، وسوء معاملة الخلفاء لأعدائهم السياسيين من أمويين وعلويين مما كان سبباً في انسلاخ كثير من أجزاء دولتهم كما حدث في الأندلس وشمال أفريقيا، وفي المشرق الإسلامي وظهور حركات هدامة مثل حركة "صاحب الزنج" من ٢٥٥ - ٢٧٠م "والقراطمة وغيرهم"^(٧).

وفي ظل ضعف الخلافة العباسية وتفككها إلى دويلات في المغرب ودويلات في المشرق، جاء المغول من الصين عبر تركستان متجهين إلى فارس والعراق والشام ومصر وأوروبا إن استطاعوا، فمن هم المغول ؟

وحتى نتحدث عن الغزو المغولي للعراق عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م لا بد أن نشير إشارات سريعة إلى أصل المغول وزحفهم غرباً. إذ تعتبر منغوليا موطن أصلي للمغول وهي التي في أوساط آسيا جنوب سيبيريا وشمال التبت وغرب منشوريا وشرق تركستان بين جبال التاي غرباً وجبال "خنجان" شرقاً. وكان المغول القدماء قبائل رعاة لكل قبيلة موطن تعيش على أرضه وتتحرك في أرجائها، ولكل قبيلة زعيم يأمركل أفراد القبيلة بأوامره، وكانوا وثنيين يعتنقون "الشامانية" ثم اعتنقوا البوذية التي وفدت إلى موطنهم من التبت

(٧) مصطفى طه بدر: محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، القاهرة ١٩٩٩م ص١٧، وتذكر بعض المصادر أن بناء بغداد تم عام ١٤٩هـ وليس عام ١٤٧هـ، هو الرأي الأقرب للمعقولية.

ويتميزون بالفروسية وحب الغزو والقتال. وكانوا قساة القلوب وحشيي الطباع لم يسلم إنسان ولا حيوان ولا زرع من ضرهم وشرهم وأذاهم.

وفي أواخر القرن الثاني عشر الميلادي نجح زعيم المغول "تيموجين" في توحيد المغول تحت قيادته بعد أن تخلص من مناوأة التتار الذين كانوا في ذلك الوقت أكبر القبائل المغولية، حتى كان الصينيون يطلقون اسمها على جميع الأمم المغولية التي عز عليها أن تتقدمها أمة المغول.

وقد تم بذلك ما كان يرمى إليه "تيموجين" من توحيد كل القبائل التي كانت تقيم في منغوليا لسلطانهم وهكذا أصبح "تيموجين" وتحت حكمه كتلة كبيرة، واستحق لقب "جنكيز خان" ومعناه ملك الأقوياء أو الملك صاحب القوة والبطش الذي منحه له مجلس عام من زعماء المغول عند اجتماعه عام ١٢٠٦.

بدأت غزوات جنكيز خان المدمرة بالقضاء على الدولة الخوارزمية وقتل زعيمها جلال الدين منكربتي" في عام ٦٢٨هـ - ١٢٣٠م واتسمت غاراته بالسرعة والبطش والوحشية لإشاعة البلبلة والفوضى والرعب في نفوس السكان، ومارست القوات المغولية في هجماتها أبشع أساليب الفتك والتقتيل^(٨)، وكانت الدولة الخوارزمية تمتد من نهر السند شرقاً إلى كردستان وخوزستان والخليج الفارسي العربي غرباً، ومن سواحل بحر آرال وبحر قزوين شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً وتشمل بين أهم بلادها أذربيجان والعراق العجمي، وفارس ومكران وكرمان وسستان وخراسان وأفغانستان والبامير والصفد وما وراء النهر^(٩).

(٨) صالح العلي: مرجع سابق، ص ٥٤٦.

(٩) مصطفى طه بدر: المرجع السابق، ص ١١١.

وجاء العدوان المغولي على العراق في الوقت الذي كان الخليفة العباسي المستعصم بالله يحكم الدولة الإسلامية من عام ٦٤٠ / ١٢٤٢م، ولم يكن لهذا الخليفة شخصية قوية تؤهله لحكم البلاد وزعامة العالم الإسلامي، فقد كان لين العريكة مستضعف الرأي ضعيف التدبير غير عارف بمشاكل عصره، غير مهيب في النفوس، وفي عهده تفرق الجند بعد أن قطعت أرزاقهم فلحق بعضهم بالشام، واضطر بعضهم إلى التسول^(١٠)

وقد قاد العدوان المغولي على العراق "هولاكو مانجو خان" الذي انتخب زعيماً للمغول عام ١٢٥١م / ٦٤٩ حيث خربوا ديار بكر وميفارقين وتقدموا حتى رأس عين "وسروج" وقتلوا أكثر من عشرة آلاف شخص، وأسروا مثل ذلك كما أنهم هاجموا قافلة كبيرة كانت في طريقها من "حران" إلى بغداد وحصلوا منها على غنائم وافرة. وقتلوا الشيوخ والعجائز وساقوا النساء والصبيان معهم^(١١).

وفي أوائل شهر المحرم ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م اتجه الغزو المغولي نحو بغداد حيث التقت قوات المغول وعددها ٢٠٠ ألف محارب بقوات الخلافة العباسية عند "الدجيل" -بين بغداد وسامراء- حيث انتهى اللقاء بتحطيم الجيش العباسي، ثم تقدم هولاكو من "خانقين" إلى بغداد فنزل الجانب الشرقي منها في شهر محرم ٦٥٦، وأطبقت قواته عليها من كل الجهات ودخلوها في ٥ صفر ٦٥٦ / ١٢٥٨م، وفتكوا بأهلها سبعة أيام أو تزيد، ولم يفرق فيها بين الرجال والنساء والأطفال حتى لم يبق من أهل البلاد ومن التجار إليهم من أهل السواد إلا القليل، وألقيت النار في معظم البلاد كما تم قتل الخليفة المستعصم بالله مع أسرته^(١٢).

(١٠) صالح العلي: المرجع السابق ص ٥٤٦

(١١) مصطفى بدر: المرجع السابق ص ١٢٢ وهو لاكو هو بن تولوي بن جنكيز خان، فجو حفيد جنكيز خان وتذكره بعض المصادر باسم "مانجو خان هولاكو".

(١٢) صالح العلي: المرجع السابق ص ٥٤٧.

وتذكر بعض المصادر عن سقوط بغداد في يد هولاكو أنه عندما جاءه الخليفة المستعصم خارج أسوار بغداد استقبله بالترحاب ، وطلب منه أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بقصد عمل تعداد لهم ، فأجابه الخليفة إلى ذلك وأرسل رسولا من لدنه نادى في طرقات بغداد على الناس أن يرموا سلاحهم ويخرجوا من الأسوار ولما فعلوا ذلك أمر هولاكو المغول فانقضوا عليهم وقتلوه^(١٣). وهكذا يتضح أن سقوط بغداد عبر التاريخ كان يحدث بالخيانة أو المؤامرة ، حيث كرم أهليا من الدفاع عنها ضد العدوان.

وكانت خسائر العدوان المغولي على العراق البشرية تفوق الخيال، إذ يقدر بعض المؤرخين عدد القتلى من سكان بغداد بحوالي مليون نفساً، والذي لا شك فيه أن المدينة فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة، كما أن الثروة الأدبية والفنية التي سهر على جمعها خلفاء بنى العباس منذ أن اتخذوها عاصمة لهم ضاعت وأصبحت أثراً بعد عين^(١٤).

حيث نهبت قصور الخلافة وقصور الأمراء، ودمرت المكتبات ودور العلم وجميع المظاهر الحضارية بأسلوب وحشي بربري ، وبعد أن استولى الجيش المغولي على بغداد ونهبها وقتل غالب سكانها، وبعد أن قتل هولاكو الخليفة المستعصم وأعوانه وأفراد أسرته، أصبح الأمر في بغداد ليولاكو ولذلك نجده في نفس اليوم الذي تخلص فيه من الخليفة يعين الحكام فيها وفيما جاورها من البلاد .. وهذا يشير إلى ما فعله الأمريكان عند دخولهم بغداد في إبريل ٢٠٠٣م، كأن التاريخ يعيد نفسه ويذكرنا بتشابه الأحداث؟؟؟^(١٥).

(١٣) مصطفى طه بدر : المرجع السابق ص١٧٧.

(١٤) مصطفى طه بدر : المرجع السابق ص ١٧٨.

(١٥) صالح العلي : المرجع السابق ص ٥٤٦.

وبعد سيطرة المغول على بغداد وما أشاعوه فيها من خراب وتدمير لم يتبق أمامهم أية مقاومة في العراق، فيما عدا بعض المدن التي حاولت المقاومة مثل أربيل وواسط والموصل. وقد استطاع نفر من الأسرة العباسية الفرار من العراق ومنهم "أبو القاسم أحمد بن الظاهر بأمر الله" الذي أعلنه سلطان مصر الظاهر بيبرس عام ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م خليفة باسم المستنصر بالله الذي لم تكن له من السلطة إلا الاسم^(١٦).

(١٦) نفس المرجع : ص ٥٤٨.

ثالثاً : الغزو الفارسي للعراق

استمر الحكم المغولي لمناطق في فارس وحتى العراق بعد سقوط بغداد حتى ظهرت بمدينة أروبييل بشمال غرب فارس بالقرب من الجزيرة الفراتية طريقة صوفية شيعية تزعمها الشيخ صفي الدين الذي ينتسب لأسرة تركمانية والمتوفي عام ١٣٣٤م وذلك في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، تلك الطريقة التي جذبت اتباعها ليصبحوا مقاتلين تزينوا بلباس مميزة وبقلنسوة عليها اثنتي عشرة ذؤابة كناية عن الإمامية الإثني عشرية وكان لون الذؤابة أحمر، مما جعل الأتراك عند التقائهم بهم في معركة جالديران عام ١٥١٤م يسمونهم "قزل باش" أي أصحاب الرؤوس الحمراء^(١٧).

ونجح إسماعيل حفيد الشيخ صفي الدين في التخلص من حكم بقايا المغول في فارس وأعلن قيام الدولة الصفوية في فارس ذات المذهب الشيعي عام ١٥٠٠م، واتخذ من مدينة تبريز عاصمة لدولته، ونشر المذهب الشيعي بين أهالي فارس بالشدّة والعنف، مما دفع الكثيرين إلى اعتناق المذهب الشيعي الاثني عشري باعتباره مذهب الدولة الصفوية.

بعد أن بسط الشاه إسماعيل الصفوي على كل الهضبة الإيرانية الفارسية، استولى على ديار بكر بين عامي ١٥٠٥ و ١٥٠٧م، ثم وجه أنصاره إلى العراق وكانت تطلعاته إلى العراق تعبر عن أسباب سياسية واقتصادية، فالعراق الزراعي الخصب يمكن أن يسد الكثير من حاجات سكان الهضبة الإيرانية الفقيرة، كما أن الاستحواذ على بغداد - قلب العالم الإسلامي - يعطي للشاه إسماعيل مكانة رفيعة لدى المسلمين، طبقاً للأحلام التي كانت تساوره^(١٨)، بالإضافة إلى أن سيطرته على العراق وبه العتبات المقدسة

(١٧) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ١٩٦٥م، ص ١٧٥.

(١٨) صالح العلي : مرجع سابق ص ٥٦٤.

للشيعة في العالم الإسلامي، بمدينة النجف الأشرف و كربلاء يعطي للشاه مكانة كبيرة بين السلمين الشيعة في العالم الإسلامي، ويبيح له فرض مذهب التشيع الإثني عشري على العراقيين السنة.

تقدم الشاه إسماعيل الصفوي نحو بغداد للاستيلاء عليها من حكم ضعيف على رأسه مراد سلطان "القره قونيلو" التي تضم شيراز والعراق، واستطاع بجيش كبير جعل في مقدمته فرقة من الفرسان القزلباش، أن يستولي على بغداد عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨م بدون مقاومة تذكر، إذ أن حاكم بغداد وجد نفسه أضعف من أن يستمر في الدفاع عن المدينة التي لا تربطه بها رابطة قوية، لا سيما بعد انتشار الروح الانهزامية بين قواته التي أرعبتها أنباء الفظائع التي كان ينزلها الشاه إسماعيل بالقوى التي تقف أمامه.

و يدخل الشاه إسماعيل الصفوي مدينة بغداد في ٢٠ جمادى الثانية عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨م، عين خادم بيك والياً على المدينة وأطلق عليه لقب "خليفة الخلفاء" وهذا يعكس غطرسته وأطماعه ومحاولة فرض نفوذه على العالم الإسلامي. وبرغم من أن الشاه إسماعيل دخل بغداد مسلماً فإنه أمر بمذبحة راح ضحيتها عدد كبير من السكان دون مبرر، وأشار المؤرخ "ابن شرقم" إلى ذلك بقوله: فتح الشاه بغداد، وفعل بأهلها ما لم يسمع بمثله قط في سائر الدهور بأشد أنواع العذاب^(١٩).

اتبع الشاه إسماعيل سياسة تفريق صفوف الشعب العراقي، فنظاهر بالاهتمام ببعض المراقدين الدينية المقدسة، في كربلاء والنجف بينما كان في الوقت نفسه يقوم بضرب القبائل وسلب أموالها، وباضطهاد قسم من السكان وتخريب مزاراتهم ثم غادر الشاه إسماعيل بغداد، وبعد أن ضم مدينة البصرة إلى ممتلكاته سلك طريق "تستر" و"الحويزة" حيث مد سيطرته على الأحواز كلها...

(١٩) صالح العلي: الرجوع السابق ص ٥٦٥.

ظل الحكم الصفوي الشيعي جاثما على صدور العراقيين، حتى جاء العثمانيون إلى شمال العراق عام ١٥١٤م، لإيقاف محاولات الشاه إسماعيل الصفوي لغزو أراضي الدولة العثمانية في الأناضول، حيث غزا السلطان سليم الأول العثماني دولة الشاه إسماعيل الصفوي ودخل عاصمة ملكه في تبريز بعد هزيمة الشاه أمام السلطان سليم في جالديران عام ١٥١٤م، ومنذ هذا التاريخ أصبح العراق ميدان حرب وصراع بين الصفويين الشيعة في فارس والعثمانيين السنة^(٢٠).

استمر العراق ميدانا للصراع الصفوي العثماني لما يزيد عن مائة عام تقريبا، قاس خلالها الشعب العراقي ويلات كثيرة، حيث لعب الطرفان المتصارعان على الاختلافات العراقية والمذهبية في الشعب العراقي، لتعميق الاختلافات بين العرب والأكرار والتركمان، وبين السنة والشيعة والمسيحيين، مما أضعف الوحدة الوطنية للشعب العراقي وجعل العراقيين غير قادرين على مواجهة القوى المعادية للعراق.

(٢٠) رأفت الشيخ: تاريخ العرب الحديث، القاهرة ٢٠٠٣م ص ٧٥-٧٦. وقد استمر الصراع الفارسي العثماني حول العراق من عام ١٥١٤ حتى عام ١٧٤٧م.